

الشباب العربي والمنظومة العلائقية الافتراضية الجديدة

بلعيد سارة¹

تمهيد:

ازداد الاهتمام بقضايا الشبكات الاجتماعية والمجتمع الافتراضي منذ أن شكل الانترنت فضاءه المعلوماتي ونجاحه في تأسيس جماعته الافتراضية وعبوره للملايين بصورة ملفتة للانتباه، فلقد أصبح الانترنت بتفاعلاته جزء من الحياة اليومية للعديد من البشر، ولم يعد مصطلح المجتمع الافتراضي من المفاهيم التي تستوقف الانتباه عند سماعه إذ أصبح ذو عمومية وانتشار ليس على مستوى التحليلات العلمية فقط ولكن أصبح متداولاً عند العديد من المستخدمين لشبكة الانترنت¹.

فهذه التطورات التكنولوجية الجديدة تمكنت من إحداث نقلة نوعية وثورة حقيقية في عالم الاتصال التقني الرقمي، الأمر الذي جعل أفراد المجتمع يعيشون في ظل عالم رمزي تحكمه معالم افتراضية تتلخص في التفاعلات المرقمة عبر شبكات الحواسيب الرقمية في فضاء مصنع خلق نوعاً لم تنصّره من الاجتماعية وساهم في تشكيل فضاء جديد للعلاقات الاجتماعية، فما هو متعارف عليه أن الجماعة الاجتماعية مجموعة من الأفراد تجمع بينهم قيم مشتركة وشعور بالانتماء ويعيشون في بيئة جغرافية مكانية واحدة تحكمهم قيم وأعراف يجتمعون عليها ويتفقون فيما بينهم على قواعد الضبط الاجتماعي التي تحكم ما يحدث بينهم من علاقات. ولكن الانترنت ساهم في تشكيل علاقات تتجاوز الإطار الفيزيقي المكاني وتفاعل الوجه بالوجه، وشكل مستخدموه وخاصة الذين تجمع بينهم اهتمامات ومصالح مشتركة مجتمع يطلق عليه المجتمع الافتراضي وهو شكل جديد من أشكال التفاعل الإنساني اتخذ منه نمطاً ومجالاً جديداً لعلاقات اجتماعية تحدث على خلفية موضوعات متباينة في الإطار الافتراضي².

¹ طالب(ة): جامعة مستغانم

وبهذا أصبحت الجماعات الافتراضية اليوم تصنع من نفسها مكانا لتشكيل روابط اجتماعية يستطيع من خلالها الفرد التحرر من قواعد رسمية لممارسة واجبات الواقع اليومي وتمكن من إقامة علاقات لا يمكن تكوينها في غيرها من الأمكنة الرسمية. الأمر الذي جعل المجتمعات الافتراضية تلقى رواجاً وقبولاً لدى المشاركين على الشبكة في أمكنة افتراضية رقمية وهذا ما أكد عليه هاورد راينغولد في كتابه حول "المجتمع الافتراضي الذي يقول فيه" إن هذه المجتمعات المحلية الافتراضية هي رد فعل واستجابة لافتقار الناس إلى المجتمع المحلي بعد تفرق وتفكك المجتمعات المحلية التقليدية.

إضافة إلى ذلك كانت هناك الكثير من المساهمات التي خدمت هذا الميدان المعرفي الجديد الذي يبحث فعاليات الفضاء الافتراضي ومجتمعاته الرقمية بشكل أكثر وضوحاً مثل الكتاب الذي حرره ستيفن جونز عام 1997 "الثقافة الافتراضية: الهوية والاتصال في المجتمع السايبري" وفي عام 1996 صدر كتاب الشبكات والنشاط الشبكي: الجماعات الافتراضية على الانترنت الذي حرره دافيد بورتر. وما قدمه راينغولد يعتبر نقطة بداية مهمة لدراسة المجتمعات الافتراضية من الناحية الاجتماعية وقد عرفها بقوله (إن المجتمعات الافتراضية هي تجمعات اجتماعية تنشأ من الشبكة حين يستمر أناس بعدد كاف في مناقشاتهم علنياً لوقت كاف من الزمن بمشاعر إنسانية كافية لتشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السايبري) لذلك يلاحظ على هذه الجماعات أنها جماعة أنترنتية تجذب مستخدمي الانترنت لعمل أي شيء يمكن عمله في العالم الطبيعي الفرق أو الاختلاف هو أن أعضاء هذه المجتمعات الرقمية يتفاعلون بفعل التكنولوجيا في أي وقت وبشكل منفتح، وبذلك يكون المجتمع الافتراضي قد حقق ما لم يحققه المجتمع المحلي الطبيعي فتفاعل جماعات النقاش والحوار وتنمو المصالح الشخصية الاجتماعية والاهتمامات النفسية والثقافية المشتركة إلى جانب كون المجتمعات الافتراضية هي عملياً لتبادل المعلومات والاتصال التقني المفيد معرفياً واجتماعياً³.

فالجدل القائم حول حضارة المعلومات لا يتوقف على التطور التقني فقط أو التطور على مستوى تكنولوجيا وسائل الإعلام والاتصال بل تعدى ذلك في أنها كانت وليدة تغيرات عميقة في بنية المجتمعات، تغيرات في أنماط الاتصال الإنساني، في علاقات العمل، في الثقافات والذهنيات

والنفسيات، في أساليب التربية والتعليم، في خلق عادات جديدة والأهم من ذلك تغيرات في طبيعة العلاقات الاجتماعية المتعارف عليها، فعملت على خلق علاقات اجتماعية جديدة تمت على مستوى جماعات افتراضية أثرت على بنية المجتمع التقليدية وساهمت في تهدم عادات اجتماعية كانت سائدة كالتواصل الفيزيقي بين الأفراد لنتج نوع تواصل آخر تجسد على مستوى المجال الافتراضي التفاعلي.

وسيتم التركيز في هذه الدراسة على تأثير الانخراط في التفاعلات الافتراضية التي فرضتها آليات الاتصال الرمزية على المنظومة العلائقية كمجال تفاعلي افتراضي لأن هذه الجماعات الافتراضية لها سماتها فهل قد نجد لها سبيلا إلى تفسير واقع العلاقات الاجتماعية الافتراضية وكيف أثر ذلك على النتائج الثقافية للفرد؟

طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل الفضاء الافتراضي:

عند بحث وتحليل الأطر الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية العامة لمنظومة الانترنت بمختلف تقنياتها وإجراءاتها وإفرازاتها وظاهرها المعلوماتية نلاحظ أن الإنسان في العصر الرقمي أو مرحلة ما بعد التكنولوجيا بالمنظور السوسيولوجي المعاصر وخاصة في الفضاء الرقمي الالكتروني هو أنه سوى ذات افتراضية مرقمنة مبرجة آليا وهو ما أشار إليه الدكتور سمول من جامعة كاليفورنيا في تصريح له إذ يقول فيه (إن التعرض اليومي للتكنولوجيا الرقمية مثل هواتف المحمول والانترنت قد يغير من الطريقة التي تعمل بها عقولنا وبرر مقولته بقوله هذا لأننا نقضي وقتا طويلا في التعامل مع الوسائل التكنولوجية، وعلى الجانب الآخر نقضي وقتا أقل في التعامل مع الأشخاص الحقيقيين فإن ذلك يجعلنا نفقد تدريجيا المهارات الأساسية في التعامل الاجتماعي مع الناس كما نفقد القدرة على قراءة وفهم التعبيرات على وجوه الناس والتي تظهر أثناء المحادثة معهم⁴.

فإجرائيا يقصد بالعلاقات الافتراضية التي تتم على مستوى شبكات التواصل الاجتماعي تلك العلاقات التي تقوم بين شخصين أو أكثر لتلبية حاجات اجتماعية أو عاطفية أو سياسية عبر مواقع التواصل الاجتماعي بحيث يكون لهذه العلاقات نتائج وآثار إيجابية أو سلبية وهي محددة في البحث عن صداقات جديدة، تعزيز علاقات الصداقة القديمة، التواصل مع الأقارب البعيدين

مكانيا، التواصل مع أشخاص من بلدان ومجتمعات مختلفة، البحث عن أفراد من الجنس الآخر لإقامة علاقات معهم.

فأساس بناء أي مجتمع يكمن في إقامة علاقات بين أفراد، ذلك أن الإنسان بحاجة إلى التفاعل داخل بيئته الاجتماعية والتي تفرض عليه القيام بعملية الاتصال فمن خلالها يكتشف الفرد هذا المحيط ويتواصل ويتفاعل مع الأفراد. وقد أفرز التطور التكنولوجي الحديث مجالات تفاعل افتراضية جديدة لم تكن معروفة من قبل ناجمة عن الاستحداثات التكنولوجية المتمثلة في وسائل الاتصال الحديثة التي حطمت الكثير من الحواجز واختصرت المسافات وحولت الواقع إلى دائرة مليئة بالمستجدات اليومية.

وفي سياق هذا التواصل الإلكتروني الناجم عن الاستخدام الواسع والمتفرع لوسائل الاتصال التي دخلت حياتنا الاجتماعية وامتدت من العلاقات العامة إلى العلاقات الشخصية المتمثلة في الصداقة والزمانة إلى علاقات عاطفية بين الجنسين التي أصبحت مرادفا للتواصل المباشر بينهما والمحضور اجتماعيا إلا أن الواقع الاجتماعي بثقافته الراضة لهذا النوع من العلاقات تضع قيودا ثقيلة حول العلاقة بين الجنسين حيث يجعل من الصعب أن تأخذ شكلها الصحيح في مجال التفاعل الحقيقي ويحكم عليها ببقائها في عالمها الافتراضي، من جهة أخرى فإن اندماج الفرد داخل المجتمع الافتراضي يعني أنه قد أصبح لديه مجال يعكس علاقات وقيم خاصة به تشكل مجال لإنتاج وإعادة إنتاج هويته عوض مجال التفاعل الحقيقي المتمثل في مختلف مجالات المجتمع المعترف بها (الأسرة، الجماعة المهنية، الأصدقاء...) وإذا كان هذا الشكل مقبول في المجتمع الافتراضي فهذا يعني أنه ينتج ثقافة وقيم خاصة به في الوقت الذي يرفض المجتمع الحقيقي هذا الشكل من العلاقات.

بتحليل محتوى العلاقات التي تتم عبر هذا الفضاء الافتراضي يبين بوضوح أنه من الأمور الخاطئة التي يقع فيها الكثيرون خلال تعاملهم معه، عدم تمييزهم بين العلاقات الاجتماعية في العالم الافتراضي ونظيرتها الواقعية بحيث يفعلون ويقولون أشياء عبر العالم الافتراضي لا يفعلونها أو يقولونها في العالم الواقعي. وعلى مستخدمي الشبكات أن يفهموا بأن هذا قد يؤدي بهم إلى المتاعب فالمستخدم عندما يقوم بعمل محادثة عبر الانترنت فهو يقوم بها مع أشخاص حقيقيين لهم مشاعر

حقيقية وبذلك عليه أن يتواصل معهم بنفس طريقة التواصل في العالم الحقيقي، ولكن كل هذا لا يمنع كما يقول البعض بأن هناك علاقات الكترونية تحولت إلى علاقات طبيعية ناجحة لأنها وضعت تحت ظروف التواصل الإنساني السليم ويقول أحدهم رافضا ترك الجلوس على الانترنت: لا أستطيع ذلك إنني أجد نفسي وذاتي هنا إنني أجد من يحترم رأيي⁵.

هذا الرأي يجعلنا نتساءل لماذا أصبحت العلاقات الاجتماعية تبحث عن متنفس لها ووجهة أخرى داخل هذا الفضاء الرقمي الافتراضي؟

وهناك مجموعة من الافتراضات التي يمكن أن توضح ذلك نوجزها في النقاط التالية:

1- أنها فضاءات رحبة مفتوحة للتمرد والثورة بداية من التمرد على الخجل والانطواء وانتهاء بالثورة على الأنظمة السياسية والتمرد على الأخلاق العامة واللباقة وسبب ذلك أن المجتمعات الافتراضية تتيح لروادها التخفي فلا يشعرون بالحرج في الكتابة عما يجول بخاطرهم أو شعورهم بالارتباك في المواجهات الواقعية.

2- أنها لا تقوم على الجبر والإلزام بل تقوم في مجملها على الاختيار، ليس هناك ما يرغم أحد على قبول صداقة غيره ولا على الرد على رسالة أو التعليق على مداخلة.

3- لغايات نفسية اجتماعية خروجاً من العزلة وسعياً إلى بناء علاقات اجتماعية تشبع حاجات البشر فمواقع التواصل الاجتماعي تتيح الفرصة لمن لا يجيدون التعامل مع الآخرين لأن هذا يجنبهم حرج التواصل وجهاً لوجه.

4- الشعور بالانتماء إلى جماعة من خلال عضويتها ومتابعة ما يحدث فيها وسهولة التفاعل مع أفرادها وأحداثها.

5- الشعور بالقدرة على التأثير في تلك الجماعة أو المجتمع الافتراضي من خلال ردود الأفعال التي يتلقاها الفرد من بقية أعضاء الجماعة وكذلك التأثير بما يحدث في ذلك المجتمع⁶.

فإذا كان الدخول على شبكة الانترنت وغرف الدردشة تعبيرا عن صيحة علمية وتكنولوجية باهرة فإنها في وجهها الآخر تعبير عن فراغ عاطفي ونفسي ووجداني لدى بعض الأفراد وخصوصاً في هذا العصر الذي يغلب عليه الطابع المادي، إضافة إلى ذلك فإن الإقبال الكبير على شبكات التواصل الاجتماعي يعبر في أحيان عديدة عن غياب الضبط الأسري والهروب من العلاقات الاجتماعية

المباشرة والواضحة إلى علاقات محكومة بالسرية ومحاطة بالكتمان. وعليه فإن الإفراط في استخدامها يؤثر على العلاقات داخل الأسرة والمجتمع وربما هذا التداول المفرط راجع إلى أن الإنسان العربي يجد في هذه الأمكنة مكانا يستطيع من خلاله أن يتحدث مع نفسه ومع غيره بصراحة ليقول مالا يستطيع قوله في الاتصال المباشر

وهو ما جعل عددا كبيرا من الأشخاص المنطوين يصبحون ذوي شخصيات جريئة بعكس الواقع. فهناك فعلا من وجد ذاته في ها المجتمع الالكتروني، هناك من أصبح له أصدقاء افتراضيون ثم تحولوا إلى أصدقاء حقيقيين، وهناك من أسس علاقات زواج نتيجة لهذه الحياة الالكترونية وهذا ما يجعلنا نعيد التفكير في كيفية فهم العلاقات الاجتماعية التي يعيشها الأفراد في المجتمعات الالكترونية الافتراضية⁷.

تفسير المنظومة العلائقية الافتراضية في ظل النظرية التفاعلية الرمزية:

يمكن اسقاط هذه النظرية على موضوع الدراسة كونها تفسر لنا طبيعة التفاعل الاجتماعي للفرد مع غيره عن طريق شبكات التواصل الالكترونية والدور الذي يؤديه من خلال اندماجه في المجتمع الافتراضي وباستخدام الفرد لهذه الشبكات الالكترونية فإنها تملّي عليه معاني وقيم ورموز جديدة..

تعتقد النظرية التفاعلية الرمزية بأن الحياة الاجتماعية وما يكتنفها من عمليات وظواهر وحوادث ما هي إلا شبكة معقدة من نسيج التفاعلات والعلاقات بين أفراد والجماعات التي يتكون منها المجتمع، فالحياة الاجتماعية يمكن فهمها واستيعاب مظاهرها الحقيقية عن طريق النظر إلى التفاعلات التي تقع بين الأفراد وأن لهذه التفاعلات دوافعها الموضوعية والذاتية وآثارها على الأفراد والجماعات، والنظرية التفاعلية الرمزية يمكن أن تفهم نموذج الإنسان عبر الدور الذي يحتله والسلوك الذي يقوم به نحو الفرد الآخر الذي كون علاقة معه خلال مدة زمنية محددة، لذا تفترض التفاعلية الرمزية وجود شخصين متفاعلين عبر الأدوار الوظيفية التي يحتلوها، فكل منهما يحاول أن يتعرف على سمات الفرد الآخر وخواصه عبر العلاقة التفاعلية التي تنشأ بينهما وبعد فترة من الزمن على نشوء مثل هذه العلاقة التفاعلية لدورين اجتماعيين متساويين أو مختلفين يقوم كل فرد بتقويم الآخر إلا أن التقويم يعتمد على اللغة والاتصال الذي يحدث بينهما.

وتدور فكرة التفاعلية الرمزية حول مفهومي أساسيين هما الرموز والمعاني في ضوء صورة معينة للمجتمع المتفاعل، وتعد اللغة من أهم مجموعة الرموز اللازمة للتفاعل الاجتماعي كما تهتم التفاعلية الرمزية

بالمعاني التي يعطيها الناس لسلوكهم وسلوك الآخرين في المجتمع، ومن أهم شروط العلاقة التفاعلية الرمزية كما يحددها (GINSBERG) هي وجود شخصين أو أكثر يكونوا العلاقة الإنسانية، تنطوي هذه العلاقة على مجموعة رموز سلوكية وكلامية ولغوية يفهمها أقطابها كما تنطوي هذه العلاقة على فعل ورد فعل بين الأشخاص الذين يكونوا موضوعها. أما أسباب العلاقة الاجتماعية في نظره فهي الدوافع التي تدفع الفرد إلى الدخول في علاقات مع الغير، وتنطلق التفاعلية الرمزية من عدة مرتكزات لتحليل عملية التفاعل الاجتماعي متمثلة في القواعد الاجتماعية فهي تعتبر أحد منظمات السلوك الإنساني وهي أحد الظواهر الاجتماعية التي تحدد سلوك الفرد وتوجهه في ارتباطه مع الآخرين ومع الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها، وكذلك العامل الزمني فمن خلاله يقاس مدى الفائدة والتبذير للأشياء المادية والمعنوية للأفراد المتفاعلين، وأيضاً من أهم المرتكزات لتحليل التفاعل الاجتماعي الحيز أبعادي أي أن التفاعل يحدث في منطقة جغرافية معلومة الأبعاد يخضع لها الأفراد في عملية تفاعلهم كما يحدد القيم الاجتماعية التي تعتبر أحد عناصر الحضارة الإنسانية وتظهر من خلال التفاعل في المواقف وتتسم القيم بالاستمرار والتغير وتؤثر على درجة فعالية التفاعل الاجتماعي وتوجيهه الوجهة التي تريدها⁸.

دراسة توضح فيما إذا كانت العلاقات التي تتم داخل هذا الإطار الافتراضي لها إمكانية التحقق في

العالم الحقيقي:

لتوضيح معنى المنظومة العلائقية التي تمارس في مجال افتراضي يجب إخضاعها للقياس وهو ما اعتمدته الباحثتان بغدادية خيرة وزموري زينب في دراستهما لبحث العلاقة العاطفية بين الجنسين باستخدام الوسائل الالكترونية في المجتمع الافتراضي وإمكانية تحقق هذه العلاقة على مستوى العالم الحقيقي والممارسة الاجتماعية، وتم اختبار ذلك انطلاقاً مما تم طرحه في إشكالية الدراسة المتمثلة في: هل يمكن للعلاقة بين الجنسين باستخدام الانترنت أن تخرج من مجتمع الافتراضي إلى المجتمع الحقيقي؟

فرضيات الدراسة:

الفرضية الأولى: التفاعل العميق والايجابي (الأفكار، الآراء والاتجاهات) بين الطرفين يجعل العلاقة أكثر قدرة على التواجد في المجتمع الحقيقي.

الفرضية الثانية: الجانب السيميولوجي للعلاقة العاطفية بين الطرفين مهم لنجاحها الاجتماعي.

عينة الدراسة:

تم اختيار العينة بطريقة عشوائية من طلبة علم الاجتماع وطلبة علم النفس بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بورقلة، وقد تم استجواب 20 طالبا (10 طلبة من علم الاجتماع / 10 طلبة من علم النفس)

أداة الدراسة: احتوت على 20 سؤالاً تضمنت خمسة محاور وهي كالآتي:

1-محور خاص بعادات الاحتكاك بالوسائل الالكترونية: وقد تضمن البحث حول المواقع التي يحتك بها أفراد العينة والوسائل التي يستخدمها للاتصال والفترات التي يتصل فيها والمدة التي يخصصها لها والأهداف التي يسعى إليها من الاتصال بالانترنت.

2-محور الأهداف والاتجاهات: وقد تضمن أسئلة خاصة بأهداف المستخدم من الاتصال بهذه المواقع ومدى تكوينه لعلاقات عاطفية مع الجنس الآخر والمدة التي نشأت فيها هذه العلاقة، وطبيعة المواضيع التي يتناولها مع الطرف الثاني ومدى وجود انسجام بينهما، وفيما إذا كانت هناك خلافات وطبيعة هذه العلاقات.

3- محور خاص بأبعاد العلاقة العاطفية: احتوى هذا المحور على أسئلة خاصة بتطور العلاقة العاطفية من مجرد محادثة على الانترنت أم تطورت إلى لقاءات مباشرة بينهما وأين تتم.

4-محور موقف الأهل من العلاقة العاطفية: احتوى هذا المحور على أسئلة خاصة بموقف الأهل من هذه العلاقة في حالة علمهم بها (معارضة، موافقة) من جهة أخرى مدى الإبقاء عليها من طرف الشباب في حالة المعارضة ومدى وصولها إلى مرحلة الزواج.

5-محور خاص بطبيعة العلاقة بين الشاب وأسرته: احتوى هذا المحور على أسئلة خاصة بطبيعة المواضيع التي يتم النقاش فيها داخل الأسرة بين الشاب أو الشابة وأهلها وطبيعة العلاقة ما إذا كانت مبنية على الحوار أم عادية وفيما إذا كانت منفتحة على النقاش في مختلف المواضيع.⁹

النتائج التي تم التوصل إليها: انقسمت إلى شقين أساسيين وهما:

أولاً: دراسة اتجاهات وتصورات أفراد العينة المتصلين بالانترنت لهذه العلاقة بحيث بينت الدراسة بأن معظمهم يتصلون عن طريق الفيسبوك ويهدفون من اتصالهم بهذا الموقع لتكوين علاقات صداقة وتبادل الأفكار مع الجنس الآخر، إلا أن هذه العلاقات غير جدية بل هي عبارة عن منفذ فقط للتسلية والترفيه عن النفس بالنسبة لهم.

ثانياً: أن هذه العلاقة لم تصل إلى مجال تواجدها الحقيقي لأنها غير جدية مما يفسر لنا أن هناك نوع من عدم التجاوب في بعض الأفكار بين الطرفين وبالتالي هناك رفض لبعض الأمور العاطفية طوال مدة العلاقة بينهما ولم تصل العلاقة إلى المجال الحقيقي لأن هذا مرتبط بأهداف كل طرف من الاتصال. فالعلاقة العاطفية لم تصل إلى المجتمع الحقيقي لأنها أولاً علاقة غير جدية مبنية على التسلية، من جهة أخرى لا يوجد تجاوب بل هناك خلافات عاطفية وهذا يفسر لنا أن أفراد العينة يلجئون إلى هذه الوسائل الالكترونية هرباً من ضغط المجتمع الذي يكبح علنية هذه المشاعر العاطفية للتعبير عنها في مجالات أخرى كالانترنت.

*من جهة أخرى العلاقة العاطفية لم تصل حتى إلى جانبها السيمولوجي ولم يتجرأ أفراد العينة بالبحث عن هذه العلاقة لأهلهم لأنهم يعلمون أنها ستلقى المعارضة الشديدة ولكن رغم ذلك يصرون على إبقائها مع العلم أنها علاقة تسلية فقط.

وكشف هذا التحليل فئتين من المندمجين في العالم الافتراضي وهما:

*فئة مندجمة في هذا العالم تبحث عن ذاتها في عالم الافتراضية لتحقيقها بعيداً عن ضغوط المجتمع وتقاليده التي تكبح مشاعرهما وبالتالي بالنسبة إليه هي هروب من سلطة المجتمع وتقاليده وقيوده.

*فئة أخرى هي مندجمة في العالم الافتراضي ولكنها تحاول أن تتحدى سلطة التقاليد والقيم وتتجاوزها بالإبقاء على العلاقة العاطفية عبر الوسائل الالكترونية حتى ولو لقيت معارضة من طرف المجتمع.

هذا يفسر لنا أن المجتمع الافتراضي أصبح له سلطة وقيم ورموز ينتجها ويعمل الأفراد على إعادة إنتاجها بالاندماج فيها، بمعنى أن الوسائل الالكترونية اخترقت ضوابط المجتمع وقضت على الأسرة فأصبحت منتجة للاغتراب لأنها لم تعد وسيلة فقط بل أصبحت غاية للفرد الذي أصبح موضوعاً

لها مما يدل على أن هذه الوسائط أنتجت قيم خاصة بها وشكلت هوية جديدة لدى الأفراد وبذلك تحول العالم الافتراضي إلى ثقافة جديدة أفرزها التغير الذي حدث على مستوى الفرد كونه مندمج فيها لأنه لا يستطيع أن يحقق رغباته في المجتمع الحقيقي المحاط بالطابوهات لهذا يلجأ إلى العالم الافتراضي لأنه بالنسبة له بمثابة هروب من الواقع والدليل على ذلك إصراره على إبقاء العلاقات العاطفية بالرغم من معارضة المجتمع وكونها أصبحت بالنسبة له وسيلة للتعبير عن ذاته.

الفرد والثقافة والمجتمع الافتراضي:

إن مفهوم الثقافة هو المفهوم الأوسع إحاطة بحقيقة المجتمعات البشرية إلى درجة أنه يمكن القول إنها هي المجتمع نفسه في مكان وزمان معينين، لذا نجد أنها تشمل نظمته وعاداته وتقاليده وأعرافه، لغته، تاريخه وأفكاره وقيمه ومعايير ومعتقداته إلى جانب أخلاقه ودينه وسلوكه وفنونه وآدابه، وبذلك تمثل صورة تركيبته ونظامه الكلي. وثقافة جماعة ما هي الواجهة التي من خلالها يمكن التعامل معها وهي النظام الذي تتبلور من خلاله المنظومة الاتصالية للجماعة، لذا نجد العلماء الأنثروبولوجيين ينظرون إلى الثقافة على أساس أنها السعة الكونية للإنسان التي تصنف تجاربه أي هي منظومة الرموز المتكاملة في حياة الإنسان وبالتالي هي النوع الإنساني نفسه.

وفي فضاء الانترنت يوجد فضاء رمزي يحوي عالماً رقمياً، يحوي مختلف موارد المعلومات المتاحة من خلال شبكات الحواسيب وهذه في واقع الأمر ثقافة رقمية في بيئة حركية يخلقها مستخدمو الانترنت ببرامجهم المتنوعة، فالجماعات التي تنشأ وتنمو على الخط من ثقافات وأصول اتجاهية مختلفة فهذه تنشئ وتطور معايير أفرادها وفق ما يحدث بينهم من نقاشات وتبادل أفكار وآراء وحوارات ما يخلق ثقافة مشتركة بمعاييرها وعاداتها الخاصة بها، فحين يحدث التفاعل الإلكتروني الافتراضي يحدث تشكل الثقافة الافتراضية ويصنع الأفراد المستخدمون للانترنت مجتمعاتهم انطلاقاً من خلفياتهم الثقافية الطبيعية، وبهذا المعنى رأى راينغولد في أوائل التسعينات¹⁰.

أن الثقافة الافتراضية بالرغم من تفاديه استخدام هذا المصطلح هي إعادة تشكيل المجتمع المحلي بواسطة التكنولوجيات المتاحة وأن استخدامها هو نوع من تحول ثقافي أوسع تحول باتجاه ثقافة افتراضية فرعية، إذ أن التفاعل المستمر على الانترنت هو الذي يصنع الثقافة بظهور أنماط السلوك الرقمي وتمثل الأفراد في مجتمعاتهم بقيمهم ومعاييرهم في الظاهرة الاجتماعية الرقمية.

إن الاتصال بين المستخدمين بشكله الجرد لا يصنع المجتمع الرقمي بمعناه الاجتماعي بل الطقوس المعمول بها في الاتصال هي التي تبني المجتمع كثقافة لها مقوماتها المحددة على رأي جونز 1995. وما يدعم الثقافة المتشكلة هو الارتداد التفاعلي بين الأفراد الافتراضيين (كذوات جماعات) يتفاعلون في بيئة مكثفة من مؤثرات التغذية الراجعة بين الهويات الالكترونية وأصحابها الحقيقيين وهو أمر يحتاج إليه الإنسان الطبيعي بشكل أساسي حتى في الحياة الطبيعية ففي كل أشكال الاتصال هناك تغذية مرتدة راجعة. إذ أنه في لحظات ما من معايشة الفضاء الافتراضي يتجسد الإنسان الرقمي في مجتمعه الالكتروني ذاتا خيالية حقيقية، وتجد هذه الذات الآلية عالما منفثا من التفاعل والارتداد والحوار الداخلي وهذا معطى جديد من معطيات مفهوم المجتمع الإنساني الذي تحول إلى ذات افتراضية، وعلى هذا الأساس يلاحظ أن كل مجتمع افتراضي يطور ثقافته الافتراضية الخاصة به.

والجدير ذكره في سياق تناولنا للثقافة الافتراضية أنها تتشكل على خلفية مواضيع متعددة تخص الأفراد والجماعات وتبنى في إطار العلاقات الاجتماعية التي تفرز ثقافتها الخاصة في جوانب كثيرة منها¹¹:

- العادات والطقوس والتقاليد في مجتمعات افتراضية معينة.
- الأنواع الاجتماعية وثقافتهم (الذكور-الإناث).
- الأصول الدينية والفكرية والعرقية للجماعات الافتراضية.
- المعتقدات السياسية والطائفية وتطوراتها المختلفة.
- اللغات المستخدمة وكيفية تمثيلها في المجتمعات الافتراضية: كلماتها، مختصراتها، رموزها، رسومها وغير ذلك.

وما نخلص إليه هو أن العلاقات الاجتماعية والثقافة أصبحتا تنحوان منحى التعددية في حقبة العولمة أداها الرئيسية هي تكنولوجيا المعلومات ومنظومة الاتصالات، ويمكن القول عند وصف هذه الحالة بأنها حالة من تفكك العلاقة بين الثقافة والمجتمع والمقصود بتفكك العلاقة بين ماهو ثقافي وماهو اجتماعي هو انحلال الوسائط الفعلية التي كانت تشدها وحدات الفعل الاجتماعي، فتشكل وتوسع معالم هذا الفضاء الرمزي أدى إلى تغير مقومات وأسس الثقافة وظهور نموذج

جديد يعاد تشكل ملامحه الفكرية والعلائقية على مستوى هذه العلاقات الافتراضية التي تدفع بالفرد للانخراط في عالم الفضاء الرمزي والخروج من عالم العلاقات الفيزيائية، حتى أصبحت التفاعلات الاجتماعية على المستوى الافتراضي تنسم بتعددية المراكز وتبادلها مما أدى ذلك إلى حدوث تحولات في منظومة قيم الأفراد المنخرطين في التفاعلات الافتراضية.

توصيات للشباب بشأن الاستفادة من الثورة الرقمية:

- إنشاء مجموعات شبابية هادفة على مواقع التواصل الاجتماعي كالفيسبوك تتبنى قضايا اجتماعية وثقافية لتبادل المعرفة وتأسيس القيم والمبادئ الأصيلة¹².
- العمل على توظيف تكنولوجيا الاتصالات الحديثة في عمليتي التعليم والتعلم والتفاعل التعليمي والبحث العلمي لما ذلك من آثار إيجابية عديدة تزيد من فاعلية وكفاءة العملية التعليمية.
- بالنسبة للأفراد الذين يعانون من مشكلات في عملية الإلقاء والتخاطب وعدم قدرتهم على توظيف رصيدهم المعلوماتي فيمكن لهم الانتماء إلى جماعة افتراضية حسب ما تخدم مصالحهم واهتماماتهم وأهدافهم بغرض الخروج من دائرة الخجل أثناء التواصل المباشر والدخول في مناقشات علمية أو ثقافية ذلك ينمي قدرتهم على المناقشة والتحليل في مختلف المواضيع.
- عند إقامة علاقات اجتماعية على مستوى العالم الافتراضي يجب الحرص على التعامل معه كعالم حقيقي تجنباً لعدم تغير قيمهم التي قد بنوها في عالمهم الحقيقي وتأثرهم بمبادئ جديدة تهدد حياتهم في العالم الحقيقي.

الهوامش:

- 1- وليد رشاد زكي، 2012، نظرية الشبكات الاجتماعية من الأيدولوجيا إلى الميثودولوجيا، المركز العربي لأبحاث الفضاء الإلكتروني، ص: 03.
- 2- وليد رشاد زكي، 2013، المجتمع الافتراضي: دراسة في أزمة منظومة قيم الأسرة المصرية، المنتدى العربي للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مصر، القاهرة، ص: 01.
- 3- علي محمد رحومة، 2008، علم الاجتماع الآلي، عالم المعرفة، الكويت، ص: (65-66)
- 4- عباس سبتي، 2012، التكنولوجيا وضعف العلاقات الاجتماعية في الأسرة، أسباب، حلول، منتدى أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة.

- 5- بغدادي خيرة، زموري زينب، العلاقات العاطفية بين الجنسين باستخدام الوسائل الالكترونية بين المجتمع الافتراضي والمجتمع الحقيقي، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، ورقة، ص: (148).
- 6- نوال بركات، الفضاء السيبري والعلاقات الاجتماعية في المجتمع الافتراضي بين جغرافيا الواقع والجغرافيا الافتراضية ، العدد 12، مجلة علوم الانسان والمجتمع، بسكرة، الجزائر، ص: (296)
- 7- بغدادي خيرة، زموري زينب، مرجع سبق ذكره، ص: (146).
- 8- حنان بن شعشوع الشهري، 2013، أثر استخدام شبكات التواصل الالكترونية (الفيسبوك والتويتر نموذجاً)، رسالة مقدمة لنيل شهادة المجستير في علم الاجتماع، المملكة العربية السعودية، ص: 19.
- 9- بغدادي خيرة، زموري زينب، مرجع سبق ذكره، ص: (136).
- 10- نفس المرجع السابق ذكره، ص: (167).
- 11- علي محمد رحومة، مرجع سابق ذكره، 130، 132.
- 12- نفس المرجع السابق ذكره، ص، 134.